ما هي إمكانيات التحاور ضمن أقليات المنطقة وأكثرياتها؟

بقلم الكولونيل شربل بركات

كان لبنان ال١٩٤٣ ومنذ نشأته مكان اللقاء والحوار المفترض في الشرق الأوسط بين أقليات وأكثريات هذا الشرق، فقد جمع أكثرية سنية، وأكثرية شيعية، وأكثرية مارونية، وأكثرية أرثوذوكسية، وجمع أكثر تراث الدروز فخرا، وأكبر جماعة درزية عددا، وبعضا من العلويين، وأغلب الروم الكاثوليك، وجمع أيضا جالية أرمنية مختلفة الطوائف، وجالية سريانية وآشورية وكلدانية، إضافة إلى جالية إنجيلية، وأخرى يهودية، وثالثة كردية وإلى ما هنالك من الألوان الطائفية التي زخر بها هذا الشرق وكان لها فيه أياما ونضالات، وقد سحقتها الأكثريات الكبرى في حروب وخضات، وأبقاها مناخ لبنان، وانفتاح بنيه، وتلون مجموعاته، لتزيده جمالا، كما طبيعته، وتجعل منه بحق هيكل الله حيث تتلاقى كل الإتجاهات، في حركة متناغمة، ترتفع إلى السماء حاملة معها هموم وتطلعات البشر باختلاف الوسائل والطرق.

لكن لبنان هذا الذي حمى الكل وحاول أن ينظم تلاقيهم كان قد جرب نوعا من الديمقراطية، التي كانت اختراع فينيقي تبناه اليونانيون وعملوا به، ثم روما وسائر الدول الحديثة، كحالة راقية ومتحضرة لتفاعل الناس في مجتمع متجانس يحكمه رأي الأكثرية، ولكنها هنا، وبسبب تنوع المجموعات الحضارية، صارت ديمقراطية الطوائف والمجموعات الإنسانية لا ديمقراطية العدد، لأنه بذلك يفقد لبنان معناه إذ لا تعود الأقليات تشعر بأنها في مأمن أو أنها متمثلة أو ممثلة في الحكم. من هنا كان اختيار طائفة الرئيس مختلفة عن طائفة رئيس المجلس التي بدورها تختلف عن طائفة رئيس الوزراء، وهكذا في كل مركز ووظيفة، ليكون للكل دور، فيؤمن التوازن ومصالح الناس ويشعر الكل بقيمة التركيبة وبضرورتها وحساسيتها.

ولكن ما حدث أن من أدار البلاد، كما هي الحال اليوم، لم يكن بعد معتادا على الوطن، وكان كل الزعماء مزارعون بالمعنى البسيط والطبيعي للكلمة التي تجعل صاحب المركز يشعر بأنه مالك له، ومن الطبيعي عندها أن يشعر الناس ببعض الغبن هنا وهناك، ولكن الوطن كان قادرا على أن يتجاوز الأزمات المتعلقة بالمصالح الخاصة عندما ينشأ جيل جديد يعرف الوطن وقيمه وأهمية نظامه وتنوعه. وما جرى أنه في ذلك الزمن تكاثرت الأزمات والمصائب ولم يعرف القيمون أن يبرزوا أهمية شكل النظام في لبنان، وراح الكل يتخبط بمشاريع اليمين واليسار، متناسيا حقيقة المشاكل الموروثة منذ آلاف السنين والتي هي أكبر من اليمين واليسار،(وقد يكون هذا دليلا على نجاح التجربة اللبنانية التي جعلت اللبنانيين ينسون بشكل سريع المشاكل الموروثة) .

ونسي البعض الذمية البغيضة التي عاشها الشرق في الشروط العمرية أو في الزمن العثماني حيث لم يسمح بركب حصان أو السير على يمين المسلم أو في غير الطاروق، ونسي غيرهم فتاوى إبن تيمية التي جعلت من الدروز والشيعة والإسماعلية والعلوية وغيرها من طوائف المسلمين، كفارا يحل قتلهم، ونسي الكل في المناخ الحضاري الذي أمنه لبنان، أو قل ذلك اللبنان، أن هناك مشاكل في الأديان نفسها تقسم الناس فئات ودرجات تبعدهم عن الله وتجعلهم يختلفون ويتناحرون يوم يريدون أن يقتربوا منه، بدل أن يمجدوا بذلك الإقتراب وجهه وعمله في الخلق فيتوحدون في عمل الخير والدعوة له لا في طرائق الصلاة والتمييز بين الفئات إن في اللبلس أو المأكل والمشرب أو العمل أو التوقيت...

وجاء الإرهاب ومشاكله يعيد الشكل القديم البغيض للتمييز، ويحاول أن يفرض الرأي بـــالقوة التـــي لا يعـــرف غيرها، وقد دعمته أنظمة على نفس الشكل، غذاها الحسد والجشـــع والإنكســـارات المتتاليـــة، فـــهربت مـــن المواجهات الفعلية لحرب الشعارات وتسجيل نصر على حضارة لبنان وتعايش بنيه...

فهل يمكننا أن نفتح حوارا من جديد بين اللبنانيين أولا لنعرف مدى تحسسهم لتلك المواضيع التي تفوق جدا في الأهمية حق الفلسطينيين أو محاربة إسرائيل أو مجاراة امريكا في سياساتها العالمية، أو العروبـــة والســـورنة والشرق أوسطية وما إلى هنالك من حلول؟

فالمطروح هو دعوة بعض المنفتحين لحوار عقلاني، وهنا نحب أن نسمع رأي الدروز لأنهم من دعـــاة تحكيـــم العقل من جهة، ولأنهم من أسس لبنان من جهة أخرى، ولو قل عددهم، على ألا يكون الرأي مغلفـــا بالتقيـــة، فمذاهب الشرق الخائفة تعتمد كلها للأسف هذه التقية . ولا نقلل من أهمية الشيعة، ولو أنهم يعتبرون أنفســـهم اليوم، مع حزب الله، أنهم المنتصرون، والمحررون، وينسون أنهم كانوا يعانون من الظلم الذي يحللونه علـــى الآخرين. هذا الحوار نريده أن يكون واضحا من حيث المخاوف التي تقيد الإنسان في يومياته، وفي كونه، فردا، خليقة الله، يحق له أن يؤمن، وأن يعمل، وأن يتكلم ويعطي رأيه، ولا يحق للجماعة أن تمنع عنه هذه الحريـــة إلا في نطاق تعرضه لحرية الآخر. فهل يمكننا اليوم بعد كل النزاعات والحروب، داخليـــة كـــانت أم خارجيـــة، مسيرة بالمؤامرة أو بسياسات الدول، مدفوعة بالمذهب أم بالمناطقية لا هم، المهم هو أن نعرف لماذا كان لبنان منذ القدم، ولماذا يجب أن يبقى، وكيف سيستمر، وإذا لم نكن نرغب في تغيير مفاهيم الأديان ومعتقدات النـــاس كيف يمكننا أن نتنظم بشكل يسمح لنا بالعيش، حتى لا نقول التعايش (لأنها كلمة صارت فارغة ومبتذلـــة)، ولا نستطيع أن نقول بشكل حضاري، لأن الحضارة مختلف عليها في مفاهيم المنطقة.

فدعونا إذا أن نتحاور كل في مكانه، إذا كان الحوار مقبولا على أولئك الذين يدعون بأنهم قد ربحوا الحـــرب، وإلا فالدعوة بالتأكيد مردودة لأن الحوار لا يكون ضمن جماعة من نفس الرأي .

فهل أصبحنا بالفعل على مستوى الحوار العميق وفي الأسس لا في المصالح الصغيرة التي تتغير كل يـــوم؟ وإذا كان الجواب إيجابا فلنبدأه على صفحات هذا الموقع أو أي موقع آخر، تبادلا للمخاوف ثم أفكارا لحلول قد يـــأخذ البعض بها أو تنير آخرين، في هذا الزمن الذي حررت فيه التكنولوجيا الإنسان من إرهاب الدولة، حيث يراقـــب كل رأي فيعطى إذنا بالنشر أو يمنع عنه ذلك.

وإذا كان لهذا الحوار قبولا بين اللبنانيين، فإنه لا شك سيصبح بابا لحلحلة مشاكل الشرق، تحضرا لنقلة نوعيـــة ترفع من قدر شعوبه، التي لم يستطع الثراء المرافق للبترول فعلها، ولا مرحلة الانفتاح العالمي التـــي قادتـــها الأفكار الأممية الشاملة. وقد تكون مرحلة المواجهة الصعبة في هذا الزمن القاسي، حيث خلعت الأقنعة وظهرت الوجوه على حقيقتها، هي الفرصة التاريخية لحوار حقيقي خال من كل تستر أو أوهام وقـــادر علـــى الوصـــول لقواعد مشتركة تنظم تواجد الجماعات المتنازعة عبر العصور مستقوية بالله، عز وجل، لفرض نظرتها المختلفة للأمور على كل الآخرين... فهل سنحلم بحوار حقيقي بين مذاهب وشعوب هذه المنطقة؟ وهل سيقوم حوار بيـــن الأكثريات والأقليات؟ أم أن الشرق سينتظر دوما الأنبياء والمرسلين ولم يحن الوقت بعد لشعوبه أن تبـــدأ ذلـــك الحوار؟ وسوف تبقى كل الأفكار التي تقارب المحرمات من الممنوعات التي لا تمس، لا بل يرجم مـــن ينـــادي بها؟...